محمد تيمور

رائد القصة القصيرة

بقلم

عباس خضر

نظم الشعر ، والف المسرحيات والقصص القصيرة وكتب النقد المسرحى ومقالات فى الاجتماع والفن والأدب ، واشتغل بالصحافة حينا وبالتمثيل قليلا ، وكان فى كليهما هاويا لاتدفعه الى الاحتراف حاجة معيشية .

كان فى الشعر والنقد والصحافة والتمثيل كسائر معاصريه من الشعراء والنقاد والصحفيين ، وان كان بدعا فى التمثيل من حيث مخالفته لاعتبارات طبقته الارستقراطية بنزوله الى خشبة المسرح .

ولكن من المحقق انه كان رائدا فى القصة القصيرة العربية الفنية بل كان هو رائدها الاول ، وكان كذلك رائدا فى التأليف المسرحى .

ومع ذلك لم تأخذ منه كتابة القصة القصيرة الا بعض الجهد والعناية والوقت ، الى جانب اهتماماته الاخرى فى الادب والفن .

وقد فعل كل ذلك فى سنوات معدودة لم يمهله القدر بعدها اذ توفى فى التاسعة والعشرين من عمره (فبراير سنة ١٩٢١) ، ترك ديوانا من الشعر ومجموعة من القصص القصيرة ومجموعة من المقالات فى النقد والاجتماع وثلاث مسرحيات كبيرة مؤلفة ، وقصة طويلة لم يتم كتابتها ومسرحية مقتبسة ممصرة « العشرة الطيبة » .

جمع شقيقه الاصغر « محمود تيمور » كل هذا الانتاج ونشره بعد وفاةصاحبه فى ثلاثة مجلدات كبيرة الحجم بعنوان « مؤلفات محمد تيمور » وكان هذا الانتاج ـ ما عدا المسرحيات والقصة الطويلة ـ قد نشر فى جريدة « الغور » فى الفترات التى كتب فيها .

نشأ محمد تيمور فى بيئة اسرية تجمع بين امرين كان اجتماعهما غريبا فى مثل هذه البيئة ، الامر الاول الغنى والارستقراطية ، والثانى العلم والادب على الطريقة العربية المأثورة . كان والده (احمد تيمور) قد كرس حياته لخدمة اللغة العربية ومعارفها وفنونها . وكان يتردد على مجلسه بعض اعلام الادب والفكر .

وكانت عمته « عائشة التيمورية » شاعرة مشهورة ، وفى المقدمة التى كتبها الاستاذ محمود تيمور لمؤلفات شقيقه يقسم حياة الفقيد الى ثلاثة أطوار • « اما حياته الاولى فى مصر ففيها تكونت مواهبه ونمت ، وساعدها على هذا النمو البيئة المنزلية ، واما حياته فى أوروبا ففيها تفتحت اعينه للجديد النافع وتشربت نفسه بالديمقراطية العالية والمساواة وامتلأ قلبه بالمطامع والآمال ـ آمال الهدم والبناء هدم القديم الرث من المذاهب الاجتماعية كانت أو ادبية ، وبناء الصالح النافع من الانظمة والمذاهب الجديدة • وطوره الاخير كان طور العمل ففيه ظهرت كتاباته وروایاته •

تأثر فى الطور الاول بوالده ومن كان يحضر مجالسه من العلماء والادباء ، فكان يطالع كتب الادب العربى ودواوين الشعراء وحفظ معلقة امرىء القيس وقصائد اخرى اختارها له الوالد ، وكان ينظم الشعر وهو طالب فى المدرسة الثانوية ، ويكتب مقالات تنشر فى جريدة « المؤيد » وعلق بالتمثيل فكان يتردد على فرقة الشيخ سلامة حجازى وكون فرقة تمثيلية بالمنزل والف لها ومثل الدور الاول فيها •

ويتمثل الطور الثانى فى الفترة التى قضاها بأوروبا ، فبعد ان اتم التعليم الثانوى بمصر سافر الى برلين ليتعلم الطب ولكنه بعد شهرين انتقل منها الى باريس ليتعلم القانون ، ولم يكن فى اعماق نفسه يريد ان يتعلم الطب أو القانون ، كان كل قلبه معلقا بالادب ، ومكث فى فرنسا ثلاث سنين وجه كل همه فيها الى قراءة الادب الفرنسى ومتابعة التمثيل هناك • ولم يتم دراسته للقانون اذ انه لما عاد الى مصر سنة ١٩١٤ ليقضى اجازته السنوية اقفلت الحرب العظمى طريق السفر فلم يستطع الرجوع الى فرنسا •

كانت المدة التى قضاها فى فرنسا المحول الذى حول اتجاهه فى الادب وقلب افكاره ، وتشبع برغبة شديدة فى اصلاح الادب والمسرح المصرى « وان اهم فكرة اختمرت فى رأسه وما زالت تكبر وتتسع » فكرة تمصير الاداب » أى أن تكون ذات صبغة مصرية والوان محلية بحتة » •

وكان الطور الثالث من حياة محمد تيمور هو السنوات القليلة التى قضاها فى مصر بعد عودته من أوروبا ، وهو طور النضج والانتاج • توافرت له فى هذا الطور الثلاثة المشهورة الشباب والفراغ والجدة ••• واقصد بالفراغ عدم انشغاله بالدراسة التى يبتغى منها الحصول على الشهادات • وقد لحق فى هذه الفترة بمدرسة الزراعة العليا ، ولكنه عدل عنها اذ لم توافق دراسة علومها مزاجه الجانح الى الادب والفن •

وكان ثالوث الشباب والفراغ والجدة هنا مدعاة الى الجد والانتاج فى المجال الذى ملك مشاعره منذ الصغر • امده الشباب بحماسة عجيبة نحو الادب والفن وتوافر له الوقت ـ على قصر المدة التى اختصرها الموت ـ فتفرغ للكتابة ولم تضطره ضرورة عيش الى الاحتراف ومعاناة بؤس الادباء والفنانين فى ذلك الزمان • وهكذا انعكس اثر الثالوث المشهور بالافساد ، فأخرج لنا هذا الاديب الرائد الخالد •

كان قد اتجه بكل مشاعره فى وقت من الاوقات الى المسرح تمثيلا وتأليفا ولكن حدث شىء جعله يتجه اتجاها آخر هو الذى يعنينا فى هذه الدراسة ، وهو كتابة القصة القصيرة •

ملك انه عين أمينا للسلطان حسين وكان ذلك عقب ان رآه السلطان يقوم بدوره فى مسرحيه « عزة بنت الخليفة » لابراهيم رمزى على مسرح الاوبرا ·

قضت عليه رسميات هذه الوظيفه ان يترك المسرح ، فوجه طاقته الى الكتابة وكان مما كتبه فى ذلك الحين مجموعة قصصه التى اطلق عليها هذا الاسم « ماتراه العيون » ·

نشأ فى قصر والده بدرب سعادة فى حى الحمزاوى بالقاهرة ولكن اسوار القصر لم تمنعه من الاختلاط بأبناء الحى الفقراء ، وكان يتردد على الضيعة فلا يعيش فيها عيش ابناء الذوات مترفعا على الفلاحين ، بل كان يختلط بهم ويصادقهم ، مؤتسيا فى هذا وذلك بوالده الذى يقرب اليه بعض أهل الادب والعلم من الفقراء ويفسح لهم فى مجالسه.

ولما كان فى اوروبا لم ينغمس فى الشهوات والمتع الحسية اذ انصرف الى الادب والفن المسرحى ، وجذبه ما طالع من التعبير عن الانسان العادى والتعاطف معه وهاله الفارق بين الحياة الاجتماعية هنا وهناك · ذهب ببذرة ديمقراطية نمت هناك فملأت نفسه بالمشاعر والافكار الاصلاحية وحفزته على الثورة الادبية ·

تملكته حمى الفن ممتزجة بحمى الاصلاح ، وشعر بمشكلة الادب فى بلاده شعورا قويا ، كانت المشكلة فى نظره ـ وكما هى فى الواقع ـ ان الادب لايعبر عن البيئة المصرية · كان الادباء فريقين :

فريق يقلد القدماء فى جزالة الاسلوب واستنفاد الطاقة بالعناية وترصيعه بالمحسنات ، وفريق يجرى لاهثا وراء الغرب ولا يكاد يفعل غير الترجمة وكان يبحث فى أدب هؤلاء واولئك عن الشخصية المصرية فلا يجدها ·

وجدها فقط فى عملين كبيرين ، هما « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى ورواية « زينب » لهيكل ، تراه ينصح شقيقه محمود بمطالعتهما ، يقول الاستاذ محمود تيمور « فى ذلك الوقت كنت استنير فى مطالعاتى بهداية شقيقى ، فنصح لى فيما نصح بأن أطالع « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى ، ورواية « زينب » للدكتور هيكل ، فرأيت فيهما لونا يختلف عن اللون الرمزى الرومانسى الذى كنت غارقا فيه ، لونا واقعيا يهبط بالقارىء من سمات الخيال العليا حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب ـ الى الارض التى نحيا عليها حيث نرى الناس بشرا مثلنا ، على فطرتهم التى خلقوا عليها » ·

كان هذان العملان خطوتين كبيرتين نحو التعبير عن الشخصية المصرية والبيئة المحلية ، كان حديث عيسى بن هشام « أول محاولة ناجحة لتمصير الادب وصبغه باللون المحلى الزاهى ، مع سموه عن الواقعية الساذجة » وكانت رواية زينب « أول عمل ادبى فى القصة المصرية ، يتضمن العناصر الاساسية للقصة الحديثة كما نعرفها اليوم » ·

وذلك بغض النظر عن النحو الشكلى الذى نحاه المويلحى من حيث الجرى على أسلوب المقامات وبغض النظر عن اتجاه هيكل نحو تكوين اللوحات الجميلة والاغراق فى العاطفة واهمال المشكلات الحقيقية للفلاح الكادح ، والمرور ببعضها بطريقة عابرة ·

وقد ظهرت الطبعة الاولى من رواية « زينب » سنة ١٩١٢ على خلاف ما يذكر من أنها ظهرت سنة ١٩١٤ ، واستقبلتها مجلة البيان فى عدد من اعداد سنة ١٩١٢ بكلمة تقريظ بدأتها هكذا :

« لا نرى فى عالم الكتابة فى هذا البلد نقصا اعيب ولا عابا افضح من خلونا من الكتاب الروائين » ٠

وعلل المحرر ذلك بقلة الملاحظة لدى الكتاب ، ثم دعا الى الكتابة الروائية قائلا « نحن نريد كتابا روائيين يأخذون من حالنا الحاضرة وادوائنا وعللنا ومبدأ المحافظة على القديم المتأصل فى نفوس شيوخنا وبعض شبابنا والحال التى كان عليها آباؤنا وصالحة عاداتهم وفاسدتها ـ موضوعات يصوغونها فى اسلوب روائى على مبـــدأ « الرياليزم » ولاضرار فى وضع روايات خيالية يرمى كتابها الى مبدأ سام أو فـكرة رشيدة يهذبون بها العواطف ويقومون بها اود الاخلاق ، فليس مبدأ « الرومانتزم » فى فن وضع الروايات بأقل فائدة من الروايات القائمة على الحقائق ٠ نقول ذلكوفى يدنا رواية صالحة هى بدء عهد جديد فى عالم الكتابة نستقبله بالغبطة والروح ، تلكم رواية « زينب » وضعها صاحبها يصف فيها حال الريفيين فى طهرهم وعفافهم وسلامة قلوبهم وشريف حبهم وجمود كبارهم وتقوى كهولهم وضمنها مبـــادىء له مصرية ليس فيها الا الرشيد القويم ، متبعا فى ذلك مـذهب ديكنز وبلزاك وثكرى ذلك محمد حسين هيكل » ٠

ويشيد محرر « البيان » بفعل المؤلف محمد حسين هيكل من حيث انه انكر نفسه فلم يذكر اسمه على الرواية بل كتب عليها «بقلم مصرى فلاح» اذ يرى ان هذا عمل وطنى مقرون بانكار الذات ٠

وتدلنا هذه الكلمة على الشعور بالنقص فى الانتاج الادبى اذ ذاك ، لخلوه من العنصر القصصى ، وفيها دعوة الى استكمال هذا النقص بالطريقة الواقعية (الرياليزم(ولعل هذا لمناسبة جو الرواية الرومانسى ٠ والكلمة تقريظ وتحية للمؤلف ٠

وقد انقضى بعد صدور « زينب » خمس سنين لم نعثر فيها على عمل قصصى طويل أو قصير « يتضمن العناصر الاساسية للقصة الحديثة كما نعرفهـــا اليوم ، كما يقول الاستاذ محمود تيمور ٠ وكانت نهاية هذه السنين الخمس فى سنة ١٩١٧ حينما ظهرت فى جريدة « السفور » قصة « فى القطار » لمحمد تيمور ـ وهى ـ حسب استقرائنا ـ أول قصة مصرية حديثة مستكملة للعناصر الاساسية فى هـذا الفن ، ونلحظ فى هذه القصة كما فى بقية قصص محمد تيمور الاتجاه الواقعى الخالص ٠ واذا صح هذا فانها تكون أول قصة واقعية متكاملة فى ادبنا على الاطلاق ٠

ويرى الاستاذ محمد يوسف نجم فى كتابه « القصة فى الادب العربى الحديث فى لبنان حتى الحرب العظمى » ان الاديب اللبنانى ميخائيل نعيمة سبق محمد تيمور بكتابة قصته القصيرة « العاقر » اذ يقول :

« ولعل خطوة نعيمة فى « العاقر » هى الخطوة التى كان ينتظرها هذا اللون من ادبنا حتى يزدهر وتكتمل فيه شروط الفن الصحيح ، فقد سبق بها نعيمة المحاولات

الاولى التى ظهرت على ايدى محمد تيمور ورجال مدرسته كعيسى عبيد وشحاته عبيد وطاهر لاشين ومحمد عزمى وابى شادى ومحمود تيمور وسواهم » .

ويذكر الاستاذ نجم ان قصة « العاقر » نشرت سنة ١٩١٥ ولكنه لا يحدد اين نشرت وهى فى مجموعة « كان ماكان » التى نشرت مؤخرا .

ويرى القارىء بعد هذا البحث قصة من قصص محمد تيمور هى «فى القطار» نعرضها كنموذج لفنه فى القصة القصيرة .

نلحظ أولا موضوع الفلاح ومشكلاته ومعاملته وموقفه من الذين يتعالون عليه وموقفهم منه ـ كان الموضوع الاول الذى تناولته بواكير القصص عندنا كما رأينا فى اقاصيص عبد الله النديم وقصة منصور فهمى ، وكما فى رواية « زينب » لمحمد حسين هيكل التى كتب على طبعتها الاولى « بقلم فلاح مصرى » وعلل ذلك فيما بعد بقوله « وقد دفعنى الى اختيار هاتين الكلمتين شعور شاب لا يخلو من غرابة ، وهو الشعور الذى جعلنى اقدم كلمة مصرى حتى لاتكون صفة للفلاح اذا هى اخرت فصارت « فلاح مصرى » ذلك انى ما قبل الحرب كنت أحس كما يحس غيرى من المصريين ومن الفلاحين بصفة خاصة بأن ابناء الذوات وغيرهم ممن يزعمون لانفسهم حق حكم مصر ينظرون الينا جماعة المصريين وجماعة الفلاحين بغير ما يجب من الاحترام ، فاردت ان استظهر على غلاف الرواية التى قدمتها للجمهور يومئذ والتى قصصت فيها صورا لمناظر ريف مصر واخلاق اهله ان المصرى الفلاح يشعر فى اعماق نفسه بمكانته وبما هو اهل له من الاحترام وانه لا يأنف من ان يجعل المصرية والفلاحة شعارا يتقدم به للجمهور يتيه به ويطالب باجلاله واحترامه .

كان الفلاح المصرى قد قاسى المظالم والآلام من الحكم التركى سواء من الترك أنفسهم أو من أولئك المتتركين) من المصريين فكان طبيعيا أن يشعر أولئك الكتاب بآلامه ويغضبوا له « حتى ابن الذوات » محمد تيمور الذى شذ عن طبقته للابسات نشأته التى أشرنا اليه وما ركب فى طبعه من نزوع الى الاصلاح ، اصلاح كل شىء فى هذا البلد ، وقد قويت عنده هذه النزعة عندما رأى الفروق الكبيرة بين الحياة البائسة الفاسدة المتأخرة عندنا وبين الحياة فى أوروبا .

وقد سخر محمد تيمور من ابناء الذوات وصور مفاسدهم وتفاهة حياتهم وآمالهم وتعاطف مع الفقراء والكادحين ونرى ذلك فى معظم القصص القصيرة التى كتبها واطلق على مجموعتها « ماتراه العيون » وفى قطع قصصية أخرى أسماها « خواطر » وقد نشرت القصص والخواطر فى كتاب باسم « ما تراه العيون » بعد سنوات من نشرها فى الطبعة الاولى ضمن « مؤلفات محمد تيمور » .

ونعود الى قصة « فى القطار » فنراه أولا يبدأ بالحديث عن ... وعن جمال الصباح والنسيم والحديقة والاشجار ، وهذه آثار الرومانسية السائدة ، وتعرف من هذه المقدمة أنه من أصحاب الضياع ومن قراء الادب الفرنسى .

وينتقل بعد ذلك الى القصة ذاتها فيعرض اشخاصها وحوارهم بطريقة تدل على فنه فى التاليف المسرحى ، وقد اختار نماذج من المجتمع يمثل كل منها قطاعا معينا ، لبعضهم موقف من القضية التى يعرضها كالتركى والطالب والراوى (الكاتب)

والبعض الآخر اما سلبى كالموظف . أو مداهن جامد كالشيخ المعمم . ورسمهم جميعا رسما واقعيا حيا ، وأجرى الحوار بينهم بلغة فصيحة قريبة من الحديث العادى وان كان قد أتى ببعض كلمات من اللغة الدارجة تجرى أمثالها عادة على أمثال شخصيات القصة مثل « أدب سيس » و «برافو» وكذلك المثل نام وقام فوجد نفسه قائم مقام . وقد التزم الحوار الفصيح فى جميع القصص وان كان قد كتب المسرحيات باللغة العامية . ويقول الاستاذ محمود تيمور فى ذلك « وكان رأيه أن يكتب المؤلف بالعامية اذا كانت الرواية (يقصد الرواية المسرحية) مصرية عصرية ، وبالعربية الفصحى فيما عدا ذلك كتاليف الروايات العربية والمصرية القديمة (الكلاسيك) وتعريب الروايات من اللغات الاجنبية وهلم جرا . ونظريته هذه غاية فى الصواب لان الكاتب (الرياليست) أى المتبع المذهب الحقيقى اذا كتب رواية عصرية باللغة الفصحى كان هذا العمل مخالفا للحقيقة التى ينشدها لان بغيته من كتابة هذا النوع من الروايات هو عرض مشاهد حقيقية من الحياة المصرية ، عرض أشخاص يتكلمون « بلغتهم ويعيشون فى جوهم ، عرض حقائق لا عرض خيال وقد دل هذا العمل على جرأة تيمور (محمد) وشجاعته فى الافصاح عن رأيه لأننا لا نبالغ اذا قلنا أنه أول من كتب للمسرح الجدى روايات فنية باللغة العامية » .

وقد اتبع محمد تيمور فى مقدمة هذه القصة (فى القطار) طريقة المنفلوطى فى الحديث عن نفسه بصفاته الشخصية المعروفة وادخل نفسه فيها بطلا ذاتيا، ولم يعمل هذا فى بقية القصص حتى فى القصة التى ساقها بضمير المتكلم وهى التى جعل عنوانها عطفة (ال ٠٠) منزل رقم ٢٢ » اذ جرد من شخصيته بطلا آخر اسمه «حسن» لا نجد فيه من المؤلف شيئا على مقتضى فنية القصة الموضوعية الحديثة.

على أننا نرى المقدمة مفحمة ودخيلة على بناء القصة الذى يبدأ بمشهد الجالسين فى القطار والمشهد نفسه هو كل القصة ذات الوحدة فى الحدث والموضوع .

ووصف الشخصيات فى القصة يشبه تنبيهات المؤلف المسرحى من حيث انه يقدمهم لنا بوصف خارجى قبل أن يأخذ فى سرد الحديث وفى الحوار ، وقد اتبع هذه الطريقة بشكل أوضح فى قصة (حفلة طرب) اذ يقدم لنا المغنية وأفراد تختها واحدا واحدا بتلك الطريقة الوصفية دون أن يتخلل هذا الوصف أى نمو للحادث .

والواقع ان الحوار فى القصة الاولى ــ فى القطار ــ متمم لرسم الشخصيات بل هم أهم من الوصف الخارجى لما فيه من دلالات اجتماعية ونفسية . وهى قدرة اكتسبها الكاتب من مرانه وخبرته فى التاليف المسرحى .

وليست قصة فى القطار أحسن قصص محمد تيمور بل لعلها من أضعفها ، انما اهتمامنا بها يرجع الى أنها أول قصة قصيرة كتبها وهى كذلك أول قصة قصيرة فنية فى أدبنا كما تقدم .

والقصة الثانية « عطفة (ال ...) منزل رقم ٢٢ » من أحسن القصص ، تصور هذه القصة نموذجا من موظفى الحكومة وأمثالهم فى ذلك الزمان يسجن الواحد منهم زوجته فى المنزل ويجول فى الخارج » فى الحانات والمواخير وبيوت الفسق والدعارة » والراوى (البطل الثانى) يتفق معه فى ذلك وان كان يختلف عنه

فى أمر آخر كما يقول .. وانا ابحث عن المرأة فى كل مكان فلا فرق بينى وبينه الا انه متزوج وانا اعزب ولكن الفرق ليس بالكبير لانه لا يرى امرأته الا ست ساعات فى كل يوم يقضيها وهو مستلق على ظهره بجوارها يغط فى نومه فأمراته فى نظره كالوسادة فى نظرى ، فنحن اذا فى مستوى واحد) .

ويعتقد امين (البطل الاول) ان كل النساء خائنات ، ولكنه يقول لزميله (حسن) ولكن امراتى يا صاح فى مأمن من كل ذلك لانها تعيش مع امى ، وامى من النساء اللواتى لا تفلح معهن شدة ولا رجاء » .

وفى مغامرة مجونية يكتشف حسن ان شريكته فى المغامرة هى زوجة زميله امين ..

لقد اصبح مثل هذا الحادث مطروقا فى القصص كثيرا وقد طرق من قبل فى قصص كثيرة قديمة كقصص الف ليلة وليلة وقصص (بوكاشيو) ولكن محمد تيمور كان أول من تناوله عندنا التناول الواقعى وصور من خلاله شخصيات حية . وبث فيه ما قصد اليه من دلالات اجتماعية .

ومن مجموعة قصص « ما تراه العيون » قصة تصور صبيا يتيما يحاول أن يتغلب على حرمانه ويلهو مع الصبيان يوم العيد ، وهى قصة « صفارة العيد » يحدثنا فيها عن اليتيم حديثا واقعيا ولم يلجأ فيه الى العاطفة مباشرة لاستدرار الدموع على اليتيم كما فعل المنفلوطى مثلا فى قصته (اليتيم)بل راح يقص ويصور لعب الاولاد فى جو مرح تتخلله سحابة رقيقة من الحزن نلمحها لمحا من خلال الحادث والوصف .

ويبدو فى هذه القصة اثر نشأة المؤلف فى قصر كبير بحى شعبى يعج بالفقراء الى جانب اصحاب القصر ، فالقصر كما يقول « لأحد الباشوات الذين ابوا أن يهجروا الحى الذى نشأ فيه أجدادهم ، وهو قصر كما قلنا عظيم يجلس على بابه الخصى واضعا رجلا على رجل وممسكا بمسبحة يستعين بها على قتل الوقت حتى لا يشعر بالسأم ولا الملل . وهو شيخ فى الخامسة والخمسين من عمره له شفاه تشبه قطع « البفتيك » التى تقدم لك فى مطاعم العاصمة وعينان يزداد احمرارهما كلما ، اخذته الجلالة) فنطق باسم الله العظيم وانف أفطس كأنه ضفدعة وجدت فى وجه الخصى منبتا حسنا . وكان طويل القامة ضخم الجثة اذا مشى اهتز كما يهتز الفيل » .

وهذا الوصف الدقيق يدل على ميل المؤلف الشديد الى تقديم شخصيات محلية مرسومة بدقة ومهارة ، وان كانت علاقة (الخصى) بالقصة لا تزيد على أنه يجلس أمام القصر فى الحارة التى يجرى فيها الحادث يرقب المادة وتبدو منه بعض الحركات الدالة على نفسيته .

وبين قصص المجموعة قصة بعنوان « ربى لمن خلقت هذا النعيم » . قدمت بالعبارة الآتية فى الكتاب وفى جريدة السفور عندما نشرت بها أولا .

« هذه القصة لموبسان الكاتب الفرنسى الشهير بدل المعرب اشخاصها وزمانها

ومكانها وموضوعها مصرا كل شيء فيها لم يبق من الاصل الا روح الكاتب واسم المعرب فى ذلك خطة تولستوى فى قصصه التى نقلها عن موبسان » .

ولا شك ان كثيرا من الكتاب فى مصر كانوا يصنعون هذا الصنيع دون ان يصرحوا هذه الصراحة المحمودة ولم نعرف عن تولستوى تلك الخطة ، والظاهر ان تيمور اراد ان يبرر عمله بذكر نظير له شأن كبير ولم يكن فى حاجة الى ذلك فان العمل لا غبار عليه الا اذا كان فى الخفاء ، أما هو فقد اعلنه واسمى نفسه (المعرب) .

والقصة تحكى عن رجل غنى متدين اعطاه الكاتب سمات مصرية اسلامية له بنت جميلة فاراد ان يزوجها بشاب من « الشبان الاغنياء المتعلمين الذين يتطلعون لهذا الزواج المبارك » لكن الفتاة رفضت وأعلنت انها لا ترغب فى الزواج وأصر الوالد وبكت الفتاة . وحزنت لها امها وحاولت ان تعرف سر ابنتها ، لكن الابنة لاذت بالصمت حتى كانت ليلة أرق فيها الاب فخرج الى حديقة المنزل يتمشى ، فراعه جمال القمر وهو يصب أشعته على الاشجار والازهار وراح يسائل نفسه « ربى لمن خلقت هذا النعيم » ولمح شبحين فى الحديقة تبين فيهما ابنته وشابا جميل الصور، دون ان يراه ، وسمعه يقول لها « انا مرغم على تركك يا حبيبتى وانى اقسم لك انى سابقى على عهد حبى الطاهر الشريف الى ان يضم عظامى القبر » .

وقال الرجل لنفسه بعد أن فكر قليلا فيما رآه وفيما سمعه « ربى لمن خلقت هذا النعيم للمحبين ولعمرى ما تلك الا جنة الحب » .

وقصة موبسان الممصرة هنا هى قصة « ضوء القمر » المشهورة ، وموبسان قصة أخرى صور فيها تأثير القمر تصويرا مختلفا اذ جعل جمال القمر يبعث فى البطلة أحاسيس جنسية .

ومحمد تيمور متأثر بموباسان فى قصصه القصيرة ، ومن اوجه هذا التأثر تدسسه فى خفايا الغرائز والميول وفضحها بطريقة تحليلية بعيدة عن الخطابية وأظهر مثال لهذا قصة « كان طفلا فصار شابا » وقد صور فيها أحاسيس مربية نحو الطفل الذى تولت تربيته حتى كبر ، ويلخص الكاتب الموقف بهذا الختام « لقد كان طفلا جميلا فكانت تحبه مربيته كأم حنون والآن صار شابا جميلا فأحبته مربيته كعشيقة ضرم الحب انفاسها » .

وقد كتب محمد تيمور مقالات قصصية صغيرة أطلق عليها « خواطر » والحقت بمجموعة « ماتراه العيون» ونرى فى كل من هذه الخواطر بذرة تصلح لانباتها قصة ممتازة ففيها اللحظة الشعورية او الفكرية التى تنبع منها القصة القصيرة ولكنه يسوقها كشيء عرض له شخصيا ويعلق على الحادثة بما يقصد منها والحادثة نفسها ناطقة بالمقصود .

وفى احدى هذه الخواطر ــ وهى « سارق وسارق »

نرى الكاتب يتبع طريقة المقارنة وهى طريقة ناجحة فى القصص القصيرة بين السارق الحقيقى وبين المتهم المظلوم ، وهو يستخدم هذه الطريقة فى معظم الخواطر

فى « ريان يا فجل » شاب قوى أبيض يشحذ بطريقة تناسب أناقته . وشيخ منهدم ضعيف يبيع الفجل قد « عز عليه أن يمد يده للسؤال فعمد للعمل مفضلا الموت على الجبن » .

وفى « لبن بقهوة ولبن بالتراب» يوازن بين نفسه وقد خرج عازفا عن شرب القهوة باللبن وبين طفلين رآهما فى الشارع يلعقان لبنا بالتراب انسكب من بائع .

وأكثر هذه الخواطر مقارنات بين حياة المترفين وبين الفقراء المحتاجين ويقارن فى بعضها بين التخلف الاجتماعى فى مصر اذ ذاك وبين ما شاهده فى أوروبا من تقدم .

ولغة محمد تيمور عربية سليمة وهو من القصصيين الفنيين الاوائل عندنا الذين كتبوا بعربية سليمة ، ففى القصص القصيرة التى كتبها المعاصرون لتيمور وابناء مدرسته كثير جدا من الاخطاء اللغوية والركاكة فى الاسلوب ولا اشك فى ان هذا من الاسباب التى كانت تجعل الادباء الآخرين غير القصصيين والذين تمكن حب اللغة العربية من نفوسهم ينظرون شذرا الى هذه القصص ويأبون عليها الدخول من باب الادب .

وقد نقد بعضهم المنفلوطى فى اللغة على سبيل التحدى ، ولكنهم لم يجدوا فى القصص الحديثة ما يدعوهم الى ان يعيروها أى اهتمام أو التفات .

على أن محمد تيمور لم يكن مع قدرته على التعبير العربى الفصيح السليم من الكتاب الاسلوبيين الجماليين ، بل هو منطلق فى تعبيره يستخدم اللغة كأداة فى التعبير عما يريد ، لا يعبأ برنين الكلمات وايقاع الجمل ، وقد استعمل الالفاظ العامية والاجنبية . حيث لا تفى الكلمة الفصحى بالدلالة المطلوبة وخاصة فى الحوار ، وكان من رأيه أن الكلمة الاجنبية متى صقلت على السنتنا أصبحت كالعربية ولا بأس من استعمالها . كتب فى مقال « ... على انى لا أريد أن نأبى استعمال اللفظ الافرنجى اذا صقله اللسان ، وفى القرآن دليل ساطع على صحة قولى اذ فيه من الالفاظ الفارسية ما يسوغ استعمال اللفظ الافرنجى » .

وتمكن محمد تيمور من اللغة العربية يرجع الى بيئته المنزلية والى شغفه بالشعر العربى وحفظ قصائده ومعلقاته ، ثم بنظم الشعر وما يتطلبه من دقة لغوية والى اهتمامه بدراسة اللغة العربية وأدبها على وجه عام .

ولم تتيسر دراسة اللغة العربية وأدبها لمعظم روادنا فى القصة الفنية كما تيسرت لمحمد تيمور وشقيقه محمود .

وبعد فقد كانت قصص محمد تيمور القصيرة أول الغيث الذى لم يدعه الموت ينهمر ، ولكنه مع هذا نزل فى ارض خصبة انبتها نباتا حسنا .

وهذه هى قصة من الوطن العربى :

في القطار

للمرحوم محمد تيمور

« صباح ناصع الجبين يجلى عن القلب الحزين ظلماته ، ويرد للشيخ شبابه ونسيم عليل ينعش الافئدة . ويسرى عن النفس همومها ، وفى الحديقة تتمايل الاشجار يمنة ويسرة كأنها ترقص لقدوم الصباح ، والناس تسير فى الطريق وقد دبت فى نفوسهم حرارة العمل ، وانا مكتئب النفس انظر من النافذة لجمال الطبيعة ، واسائل نفسى عن سر اكتئابها فلا اهتدى لشيء .

تناولت ديوان «موسيه» وحاولت القراءة ، فلم انجح . فالقيت به على الخوان وجلست على مقعد ، واستسلمت للتفكير كأنى فريسة بين مخالب الدهر

مكثت حينا أفكر ثم نهضت واقفا ، وتناولت عصاى وغادرت منزل وسرت وانا لا أعلم الى أى مكان تقودنى قدماى الى أن وصلت الى محطة باب الحديد وهناك وقفت مفكرا ثم اهتديت للسفر ترويحا للنفس ــ وابتعت تذكرة ــ وركبت القطار للضيعة لاقضى فيها نهارى بأكمله .

وجلست فى احدى غرف القطار بجوار النافذة ، ولم يكن بها أحد سواى وما لبثت فى مكانى حتى سمعت صوت بائع الجرائد يطن فى اذنى (وادى النيل . الاهرام . المقطم) فابتعت احداها وهممت بالقراءة واذا بباب الغرفة قد انفتح ودخل شيخ من المعممين اسمر اللون طويل القامة ، نحيف القوام ، كث اللحية له عينان اقفل اجفانهما الكسل فكأنه لم يستيقظ من نومه بعد . وجلس الاستاذ غير بعيد عنى ، وخلع مركوبه الاحمر قبل أن يتربع على المقعد ثم بصق على الارض ثلاثا ماسحا شفتيه بمنديل احمر يصلح أن يكون غطاء لطفل صغير . ثم أخرج من جيبه مسبحة ذات مائة حبة وحبة وجعل يردد اسم الله والنبى والصحابة والاولياء الصالحين . فحولت نظرى عنه فاذا بى ارى فى الغرفة شابا لا ادرى من اين دخل علينا . ولعل انشغالى برؤية الاستاذ منعنى أن أرى الشاب ساعة دخوله .

نظرت الى الفتى وتبادر الى ذهنى انه طالب ريفى انتهى من تأدية امتحانه ، وهو يعود الى ضيعته ليقضى اجازته بين اهله وقومه . نظرت الى الشاب كما نظر الى ثم اخرج من حافظته رواية من روايات سامرات الشعب وهم بالقراءة بعد أن حول نظره عنى وعن الاستاذ . ونظرت الى الساعة راجيا أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر رابع فاذا بأفندى وضاح الطلعة حسن الهندام دخل غرفتنا وهو يتبختر فى مشيته ويردد أنشودة طالما سمعتها من باعة الفجل والترمس . جلس الافندى وهو يبتسم واضعا رجل على رجل بعد ان قرأنا السلام فرددناه رد الغريب على الغريب .

وساد السكون فى الغرفة والتلميذ يقرأ روايته والاستاذ يسبح وهو غائب عن الوجود والافندى ينظر للابسه طورا وللمسافرين تارة اخرى وانا اقرأ وادى النيل منتظرا ان يتحرك القطار قبل ان يوافينا مسافر خامس .

مكثنا هنيهة لا نتكلم كأنا ننتظر قدوم أحد فانفتح باب الغرفة ودخل شيخ

يبلغ الستين أحمر الوجه براق العينين يدل لون بشرته على أنه شركسى الاصل وكان ممسكا مظلة اكل عليها الدهر وشرب . اما حافة طربوشه فكانت تصل الى اطراف اذنيه . وجلس أمامى وهو يتفرس فى وجوه رفقائه المسافرين كانه يسألهم من أين هم قادمون والى أين هم ذاهبون ثم سمعنا صفير القطار ينبىء الناس بالمسير وتحرك القطار بعد قليل يقل من فيه الى حيث هم قاصدون .

سافر القطار ونحن جلوس لا ننبس ببنت شفة كأنما على رؤوسنا الطير حتى اقترب من محطة شبرا فاذا بالشركسى يحملق فى ثم قال موجها كلامه الى :

هل من أخبار جديدة يا افندى ؟

فقلت وانا ممسك الجريدة بيدى ـ ليس فى أخبار اليوم ما يستلفت النظر اللهم الا خبر وزارة المعارف بتعميم التعليم ومحاربة الأمية .

ولم يمهلنى الرجل أن أتم كلامى لانه اختطف الجريدة من يدى دون أن يستأذننى . وابتدأ بالقراءة ما يقع تحت عينيه ، ولم يدهشنى ما فعل لانى أعلم الناس بحدة الشراكسة . وبعد قليل وصل محطة شبرا وصعد منها أحد عمد القليوبية . وهو رجل ضخم الجثة كبير الشارب أفطس الأنف له وجه به آثار الجدرى تظهر عليه مظاهر القوة والجهل . جلس العمدة بجوارى بعد أن قرأ سورة الفاتحة وصلى على النبى ثم سار القطار قاصدا قليوب .

مكث الشركسى قليلا يقرأ الجريدة ، ثم ثناها والقى بها على الارض وهو يحترق من الألم وقال :

ـ يريدون تعميم التعليم ومحاربة الامية حتى يرتقى الفلاح الى مصاف اسياده وقد جهلوا انهم يجنون جناية كبرى .

فالتقطت الجريدة من الارض وقلت :

ـ واية جناية ؟

ـ انك ما زلت شابا لا تعرف العلاج الناجع لتربية الفلاح .

ـ واى فلاح تقصد ؟ وهل من علاج انجع من التعليم ؟

فقطب الشركسى حاجبيه وقال بلهجة الغاضب :

ـ هناك علاج آخر .

ـ وما هو ؟

فصاح بملء فيه صيحة افاق لها الاستاذ من نومه وقال :

ـ السوط . ان السوط لا يكلف الحكومة شيئا اما التعليم فيتطلب اموالا طائلة ولا تنس ان الفلاح لا يذعن الا للضرب لانه اعتاده من المهد الى اللحد .

واردت ان اجيب الشركسى ولكن العمدة حفظه الله كفانى مؤونة الرد فقال للشركسى وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

ـ صدقت يا بيه صدقت . ولو كنت تسكن الضياع مثلنا لقلت أكثر من ذلك . اننا نعانى من الفلاح ما نعانى لنكبح جماحه ، ونمنعه من ارتكاب الجرائم . فنظر اليه الشركسى نظرة ارتياب وقال :

ـ حضرتكم تسكنون الارياف ؟
ـ انا مولود بها يا بيه .
ـ ماشاء الله .

جرى هذا الحديث والاستاذ يفط فى نومه والافندى ذو الهندام الحسن ينظر لملابسه ثم ينظر لنا ويضحك اما التلميذ فكانت على وجهه سيما الاشمئزاز ولقد هم بالكلام مرارا فلم يمنعه الا حياؤه وصغر سنه ولم اطق سكوتا على ما فاه به الشركسى فقلت له :

ـ الفلاح يا بيه انسان مثلنا وحرام ألا يحسن الانسان معاملة أخيه الانسان .

فالتفت الى العمدة كانى وجهت الكلام انيه وقال :

ـ انا اعلم الناس بالفلاح ولى الشرف أن اكون عمدة فى بلد به الف رجل وان شئت أن تقف على شئون الفلاح أجيبك . ان الفلاح يا حضرة الافندى لا يفلح معه الا الضرب ولقد صدق البك فيما قال . واشار بيده الى الشركسى .

ـ ولا ينبئك مثل خبير .

فاستشاط التلميذ غضبا ولم يطق السكوت وقال وهو يرتجف :

ـ الفلاح يا حضرة العمدة ..

فقاطعه العمدة قائلا :

ـ قل يا سعادة البك لانى حزت الرتبة الثانية منذ عشرين سنة .

قال التلميذ :

ـ الفلاح يا حضرة العمدة لا يذعن لاوامركم الا بالضرب لانكم لم تعودوه غير ذلك فلو كنتم أحسنتم صنيعكم معه لكنتم وجدت فيه أخا يتكاتف معكم ويعاونكم ولكنكم مع الاسف أسأتم اليه فعمد الى الاضرار بكم تخلصا من اساءتكم . وانه ليدهشنى أن تكون فلاحا وتنحى باللائمة على اخوانك الفلاحين .

فهز العمدة راسه ونظر الى الشركسى وقال :

ـ هذه هى نتائج التعليم .
فقال الشركسى :
ـ نام وقام فوجد نفسه نائم مقام .

اما الافندى ذو الهندام الحسن فانه قهقه ضاحكا وصفق بيده وقال للتلميذ

ـ برافو يا افندى ، برافو ، برافو ...

ونظر اليه الشركسى وقد انتفخت أوداجه وتعسر عليه التنفس وقال :

ـ ومن تكون انت ؟

ـ ابن الحظ والأنس يا أنس .

وقهقه عدة ضحكات متوالية .

ولم يبق فى قوس الشركسى منزع فهاج وهو يبصق على الارض طورا وعلى الاستاذ وعلى حذاء العمدة تارة :

ـ أدبسيس فلاح .

ثم سكت وسكت الحاضرون ، واوشكت ان تهدأ العاصفة لولا ان التفت العمدة الى الاستاذ وقال :

ـ انت خير الحاكمين يا سيدنا فاحكم لنا فى هذه القضية . فهز الاستاذ راسه وتنحنح وبصق على الارض وقال :

ـ وما هى القضية لأحكم فيها باذن الله جل وعلا ؟

ـ هل التعليم افيد للفلاح أم الضرب ؟

فقال الاستاذ :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ انا فتحنا لك فتحا مبينا . قال النبى عليه الصلاة والسلام لاتعلموا أولاد السفلة العلم

وعاد الاستاذ الى خموله وأطبق اجفانه مستسلما للذهول فضحك التلميذ وهو يقول :

ـ حرام عليك يا استاذ . ان بين الغنى والفقير من هو على خلق عظيم كما ان بينهم من هو فى الدرك الاسفل .

فأفاق الاستاذ من غشيته وقال :

ـ واحسرتاه . انكم من يوم ما تعلمتم الرطان فسدت عليكم اخلاقكم ونسيتم اوامر دينكم ومنكم من تبجح وبقى واستكبر وانكر وجود الخالق .

فصاح الشركسى والعمدة (لك الله ياأستاذ) وقال الشركسى :

ـ كان الولد يخاف ان يأكل مع أبيه واليوم يشتمه ويهم بصفعه .

وقال العمدة :

ـ كان الولد لا يرى وجه عمته والآن يجالس امراة اخيه .

ووقف القطار فى قليوب فقرات الجميع السلام وغادرتهم وسرت فى طريقى الى الضيعة وانا اكاد لا أسمع دوى القطار وصفيره وهو يعدو بين المروج الخضراء لكثرة ما يصيح فى اذنى من صدى الحديث .